نحن اليوم في حالة لا تخفى على أمثالكم · صرنا وراء جميع الامم والذنب في ذلك علينا لا على الاسلام · فالاسلام لم يجن علينا وانما نحن جنينا عليه وعلى أنفسنا اذ جعلنا بيننا و بين القرآن حجبا كثيفة فأعرضنا عنه وعن العلوم التي نحفظ بها بيضتنا

كانت العلوم الرياضية والطبيعية عند ظهور الاسلام مندرسة ليس لها سوق نافقة عند أمة من الامم فأحياها المسلمون عند ماظهر الاسلام ونفذت شوكته · ومن العجب أن الجامدين الذين يحرمونها اليوم يعترفون بأن أولئك الاساطين الذين درسوها من سلفنا هم خيرة علمائنا!

الانقلاب العثماني (*

﴿ وتركيا الفتاة ﴾

الفرق بين الانقلاب والثورة

الانقلاب في اصطلاح المؤرخين تغير مهم في حكومة الدولة وقلب في قوانينها، وهو غير الثورة التي بمعنى العصيان والخروج عن الطاعة والقيام على الحكومة المشروعة، والفرق بين الانقلاب والثورة كبير، فان الثورة كثيرا ما تضر بمنافع الامة ومصالحها وتصدها عن السير في طريق النجاح، بخلاف الانقلاب فانه مهما آلم الامة ورضرضها فهو يخطو بها خطوة في التقدم، ويصعد بها درجة في سلم

---

*) رسالة حفيلة جليلة ألفها صديقنا محمد روحي افندي الخالدي المقدسي من أرباب الاقلام المشهورين باستقلال الفكر واصالة الرأي وهو مؤلف كتاب « تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب » وكان وقت كتابتها في « بردو » إحدى المواني الفرنسية وقد رأينا ان أحسن تقريظ لها نشرها في المنار لانها أصدق تاريخ لاعظم انقلاب

النجاح ، وأكثر كتاب العربية لا يفرقون بين الكلمتين ، ويطلقون اسم الثورة على الانقلاب ، فيقولون الثورة الفرنساوية مثلا ، بدل الانقلاب الفرنساوي ، ولم يلتفتوا الى ما روي عن لويس السادس عشر ملك فرنسا لما أخبر بهدم قلعة الباستيل (la Bastille) واطلاق المسجونين فيها فقال: إذاً هذه ثورة (Révolte) فأجابه المخبر : عفوا يامولاي بل هذا انقلاب (Révolution)

فمراد ملك فرنسا ان فعل الثائرين غير مشروع ، ولا حق لخروجهم عن الطاعة ، وجواب المخبر ينافيه ، ويبين ان الانقلاب غير الثورة والعصيان ، فنحن اليوم أحوج الى تعيين معاني الكلمات والى سكب قوالب الالفاظ على قدر المعاني ، لان الانقلاب السياسي من شأنه ان يحدث انقلابا في اللغة والادب ، فضلا عن انقلاب الاخلاق والعادات والافكار ، الا ترى الجرائد العثمانية على اختلاف لغاتها من تركية وعربية ورومية وأرمنية ويهودية (أسبانية وعبرانية) وبلغارية وفرنساوية والجرائد الالبانية والكردية على وشك الظهور — كيف بدلت لهجاتها بعد حدوث الانقلاب ، وهجرت تلك الالفاظ الفخمة والتعبيرات السقيمة ، التي تغطي المعاني بستار المهابة حتى تستبهم على القارئ ، وتقيد فكره بسلاسل التذليل والاستعباد

الاستبداد يولد الانقلاب

فالذي يولد الانقلاب هو الاستبداد ، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية ، لا من قواعد الدين الاسلامي كما يتوهم البعض منا ، وأكثر الاوربيين الذين يصفون الحكومات الاسلامية بكونها ثيوقراطية أي انها جامعة بين الديانة والسياسة ، واحكام المستبد أو المستبدين في الغالب جائرة عن الحق ، مجحفة بمن تحت يدهم من الخلق ، لحملهم اياهم على ماليس في طوقهم من اغراض المستبد والمستبدين وشهواتهم ، ولذا ورد في الخط الشريف السلطاني الذي منح به القانون الاساسي « ان قوة الحكومة تحافظ على حقوقها المقبولة والمشروعة ، وعلى منع الحركات غير

المشروعة اعني بها منع ومحو الخطيئات وسوء الاستعمالات المتولدة من الحكم

الاستبدادي الفردي أو الافراد القلائل ليستفيد جميع الاقوام المركبة هيئتنا منهم نعمة الحرية والعدالة والمساواة بلا استثناء ، وذلك حق ومنفعة جريان بالهيئة الاجتماعية المدنية ... الخ »

الاستبداد والاسلام

فالاستبداد هو منبع الشرور ، وسبب التأخر والانحطاط وقد ورث ملوك الاسلام هذا الاستبداد عن اكاسرة الفرس وقياصرة الرومان ، عن نماردة بابل وفراعنة مصر ، عن جنكيزخان وتيمور لنك . والاسلام أول شريعة اعترضت على الاستبداد وقاومته أشد المقاومة ، وساوت بين أفراد الامة ، وحافظت عن الحقوق والحرية الشخصية ، وامنت الاجانب المعاهدين فضلا عن افراد الامة – على أموالهم ودمائهم واعراضهم ، ومهدت السبيل للحكومة الديموقراطية ، ووضعت حق الحاكمية في الامة ، ولم تكتف باعطائها الحرية في القول والعمل والكتابة والاجتماع ، بل فرضت على كل فرد من افرادها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فجعلت الامة مسيطرة على الحقوق العامة ، ولم تفرق في الحقوق الخاصة بين المسلمين وخليفتهم والا اولي الامر منهم . ورد في الدرر وهو من أهم الكتب الشرعية « ان الخليفة يقتص منه ويؤخذ بالمال لانهما من حقوق العبد ، ويستوفيه ولي الحق أما بتمكينه أو بالاستعانة بمنعة المسلمين » ولذا حكمت القضاة على اكثر من واحد من الخلفاء وسلاطين الاسلام برد المال وضمانه ، وانزلتهم عن المنصة ، وأقعدتهم مع الخصم في مجلس الحكم

الاستبداد آسيوي لا اسلامي

كان الحال على ماذكر مدة الخلفاء الراشدين ، ومن اقتفى أثرهم كعمر بن عبد العزيز من بني أمية ، ثم تغلب الاستبداد الآسيوي على احكام الدين الاسلامي ، وانقلبت الخلافة الى سلطنة واصبح خليفة الاسلام (مقدسا وغير مسؤل) كملوك الافرنج ليومنا هذا ، لا يقتص منهم ولا يؤخذون بالاموال ولا تستطيع المحاكم إحضارهم ولا إصدار الحكم عليهم ، ويرثون .. لك كما يرث أحدنا مال أبيه . فاستبدوا بالامر استبداد لويس الرابع عشر الذي كان يقول « الدولة هي انا » و « أموال الرعية انما هي ملك لملكها فاذا

أخذ شيئا منها فقد أخذ حقه!! » واستباحوا التصرف في نفوس الرعية وأموالهم واعراضهم وفي خزائن الدولة و بيت المال وأوقاف المساجد والمؤسسات الخيرية. وصار الوزراء والمصاحبون يقولون «خسرو بكند شيرينست» أي ما أعجب كسرى فهو حسن ، فالحسن هو ما استحسنه السلطان والقبيح ما استقبحه السلطان ، ولا دخل في ذلك للعقل والذوق ، ولا للحكمة والشرع ، لانهم أولوا الشرع على حسب غاياتهم واغراضهم

فاذا تصفحت تواريخ الامم الاسلامية في الشرق والغرب تراها مؤسسة على هذا الاستبداد الآسيوي ، وعلى جانب من الاستعباد الافريقي ، وليس فيها شيء من الحرية الاسلامية ولا المشورة المأمور بها في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، كما قال الله لنبيه : (٣ : ١٥٣ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين) وقوله تعالى (٤٢ : ٢٦ وأمرهم شورى بينهم) وحديث «أنتم أعلم بأمور دنياكم» وأمثاله كثيرة كحديث حلف الفضول المشهورة في التواريخ: وذلك أن قبائل من قريش تداعت الى حلف الفضول الذي عقدته قديما قبائل العرب واشتهر باسم رؤسائهم الفضيل والمفضل ، فاجتمعت وجوه قريش في دار عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه ، فتحالفوا وتعاقدوا ان لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وكان ذلك قبل الاسلام ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ، ما احب ان لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لاجبت » فأي شيء اشبه بهذا الاجتماع والتعاقد من البرلمان والمبعوثان ؟ لا بل من جمعية الاتحاد والترقي ؟ ولقد احسن جدا العلامة المقري في جوابه المذكور في نفح الطيب حيث قال :

« سألني بعض الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم ، اذ لم يل أمرهم من يسلك بهم الجادة ، و يحملهم على الواضحة ، بل من يفتر في مصلحة دنياه ، غافلا عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة ، ولا يراعي عهدا ولا حرمة؛

« فأجبته: بأن ذلك لان الملك ليس في شريعتنا ، وذلك انه كان فيمن قبلنا شرعا ،

قال الله تعالى ممتنا على بني اسرائيل (وجعلكم ملوكا) ولم يكن ذلك في هذه الامة ، بل جعل لهم خلافة ، قال الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) الآية وقال تعالى (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وقال سليمان (رب اغفرلي وهب لي ملكا) فجعلهم الله تعالى ملوكا ولم يجعل في شرعنا الا الخلفاء . فكان أبو بكر خليفة رسول الله (ص) وان لم يستخلفه نصا لكن فهم الناس ذلك فهما ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر ع ر فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد الى سبيل الخلافة الذي هو النظر والاختيار ، ونص في عهده على ذلك ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان . فاخراج عمر لها عن بنيه الى الشورى دليل على انها ليست ملكا ، ثم تعين علي بعد ذلك اذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، واصطفى الآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معاوية أول من حوّل الخلافة ملكا ، والخشونة لينا ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم ، فجعلها ميراثا ، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها . ألا ترى ان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان خليفة لا ملكا ، لان سليمان رحمه الله رغب عن بني أبيه ايثارا لحق المسلمين ، ولئلا يتقلدها حيا وميتا ، وكان يعلم اجتماع الناس عليه ، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط الا خليفة ، وأما الملوك فعلى ما ذكرت الا من قلّ ، وغالب أفعاله غير مرضية » اه

فيظهر لنا من هذا الكلام الفرق بين الخلافة والملك ، والسبب الذي جعل ملوك الافرنج مقدسين وغير مسؤلين

منبع الاستبداد قصر الملك والخلافة

ومنبع استبداد الدول الاسلامية في قديم الزمان وحديثه هو قصر الخلافة ، ودار الملك والامارة ، حيث تكثر دسائس المقربين ويشتد حرصهم على الجاه وطمعهم في جمع الاموال وادخارها وفي انفاذ الكلمة ، ولذا ابتعد عنهم أهل التقوى والورع في جميع البلدان والازمان . فالمقرب منهم لايكاد يتم له الامر الا ويظهر له رقباء يشون به ، وينصبون له اشراك المكيدة ، ويتهمونه بانواع التهم ، وينسبون اليه كل خلل في الدولة ، حتى يبعدوه عن مركز الدولة ، وربما تسببوا في مصادرته وقتله مع

أولاده وعياله كما جرى للبرامكة مع هارون الرشيد. فتاريخ الدول والامارات الاسلامية كلها وقائع برمكية . وقد ينصر الوزير على الخليفة اوالامير ويحجر عليه ويصير هو المستبد بالامر ، ونتيجة القضيتين واحدة وهي الاستبداد ، وتغلب القوة على الحق. والامة في جميع هذه الاحوال شاخصة ببصرها لاتطلع على خفايا السياسية وتدبير الملك ، ولا على دسائس المقربين وحيلهم لإخفائهم جميع ذلك عنها ، واستبدادهم بالامر عليها . ولقد أجاد لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر في الرسالة التي خاطب بها الوزير ابن مرزوق ووصف بها أحوال خدمة الدولة ومصايرهم ، وعبر فيها عن ذوق ووجدان وهي أبلغ ماحرر في هذا الصدد ، وقد ذكرها المقري في الجزء الثالث من نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب . فالمصلحون لم يتخلصوا من هذه الغوائل ولا وجدوا وقتا لاصلاح داخل الممالك وتحكيم سياستها الخارجية، ولذا انصرفت هممهم لجمع الاموال وادخارها ، واغتنام فرصة التقرب ونيل التوجه واكتساب السعادة، لان الواحد منهم لايدري الى متى يدوم له التوجه والاقبال، فيسارع الى الاستفادة من الحال التي اسعدها الحظ بنيلها

قصر السلطنة العثمانية وتربية ولي العهد والـكامر يلا

كان قصر السلطنة في الممالك العثمانية مرتبا على الاصول والتقاليد الموروثة عن المغول ، حيث كانت الدولة عبارة عن خيمة كبيرة حكومتها بابهـا العالي . وأول وظيفة على هـذه الحـكومة انزال الخان المعظم على الرحب والسعة ، واسكان من معه من الحريم والاسرة والاقارب والحاشية ، واستـكمال أسباب راحتهم وسعادتهم ، واستحضار النفقات اللازمة لهم ولرؤساء (العرضي) . فالعمود الأوسط القائمة عليه هذه الخيمة هو « الصدر الاعظم » القائم مقام الخان المعظم أي السلطان والحامل لختمه الذاتي والوكيل المطلق عنه في جميع مسائل الدولة الداخلية والخارجية، وبجانبه « قاضي عسكر » لفصل الدعاوي وتقسيم مواريث الجنـد والمحافظة على حقوق السلطنة ، وشيخ الاسـلام انما هو « قاضي عسكر » وظيفته أحدث عهدا . فقضاء العسكر قديم في الدولة ومتقدم فيها على قضاء المدن ممـا يدل على حياتها العسكرية المتنقلة ، ثم « الدفتردار » الذي يقيـد الاموال ويحرر الحساب ، وهو اليوم ناظر

المالية ، ثم « النيشانجي » الذي يكتب الإرادات والفرمانات وغيرها ، فهؤلاء أعمدة ثانوية حوالي العمود الاعظم الذي في وسط الخيمة ، واما حبال الخيمة فهي الاغوات ،

ويقسم الاغوات بحسب خدمتهم في الداخل أو في الخارج إلى قسمين : فالقسم الاول هم خدمة الداخل المسمى « اندرون » من مماليك البيضان وطواشية السودان المحافظين على الحريم ، وكبيرهم آغة دار السعادة ويسمى أيضا آغة البنات « قيزلر آغاسي » ، ثم آغة البستانيين « بستانجي باشي » المكلفين بزرع البساتين والجنان وآغة الرسل الموصلين للاخبار وآغة المحافظين على الاثواب والالبسة « اثوابجي باشي » و « القهوه جي باشي » و « الابريقدار » و « السجاده جي باشي » . . . الخ والقسم الثاني هم خدمة الخارج واغوات (العرضي) مثل آغة الانكشارية « يكيجري آغاسي » وآغة الصباهية « سباهي » وآغة الطوبجية وهو « الطوبجي باشي » . . . الخ فهؤلاء الاغوات من خدمة الداخل وخدمة الخارج كلهم في درجة واحدة بمثابة حبال الخيمة ، ولا فرق بينهم في التشريفات الرسمية والمعاشات والتعيينات ، ولا في الاعتبار والمكانة عند الدولة ، فالجاهل والعالم ، والعبد المملوك والحر ، ووضيع النسب وشريفه ، ومجهول الاصل ومعروفه ، والابتر الخصي وكامل الاعضاء — كلهم متساوون لا تمييز بين « القهوه جي باشي » الذي لا تحتاج صناعته الا لمعرفة طبخ القهوة وتقديمها ، وبين « الطوبجي باشي » المتوقفة صناعته على معرفة الفنون العسكرية والمعارف الكثيرة ، وهذا الذي حمل الشاعر المفلق الامير شكيب على ان يقول أبياته المشهورة ومنها :

وألفيت فيها أمة عربية يرى الترك منهم أمة الزنج اكرما

ولذا امتزجت الحياة البيتية بالحياة الدولية ، والمسائل النسائية بالمسائل السياسية ، واشغال السراي السلطانية بأشغال الباب العالي ، وبين السراي والباب العالي وسط يقال له المابين لانه بين « الاندرون » أي الداخل وبين « البيرون » أي الخارج . ويشتمل المابين على الكتاب والقرناء والمصاحبين وهم « المابينجية » ويعدون كلهم من أهل السراي وخدمتها

فامتلأت السراي السلطانية بالاسرى من السراري الجركسيات والمماليك والطواشية ، مع أن الشرع الاسلامي لا يبيح هذه العادة المستكرهة ، قال شارح الدر : « وفي قطع الذكر من الاصل عمدا قصاص » وينذر فيهم وفي جميع خدمة الداخل من يتعلم القراءة فضلا عن الكتابة ، لان فضيلة الواحد منهم ان يكون على الفطرة الاصلية فارغا من العلوم والمعارف ، لئلا يسول له الشيطان أمرا أو دسيسة سياسية توجب انقلاب الملك ، ولذا اختاروا الخدمة من قرى الاناضول البعيدة ومن ذوي السذاجة والغرارة ، فاذا ولد لاحد السلاطين العظام مولود تربى في حجر والدته الجركسية على دلال السراري والاغوات إلى تمام السنة الثانية عشرة من عمره ثم تبدل تلك السراري بالحظايا فيتخذ منهن حرما ينزوي بهن في أحد القصور ، وتبقى الاغوات والمماليك على ما كانت عليه أيام صباه ، وربما جاؤه بمحافظ يحفظه القرآن ، ومعلم يعلمه مبادي العلوم ، ولكن أكبر معلم للانسان هو البيئة التي يكون فيها ، وكيف يتعلم المرء بدون ان يخرج من بيته ويحتك بالعلماء ورجال الدولة . فيبقى ولي العهد على هذه الحال ينتظر دوره في الملك ، وهو محبوس في قصره ، وعليه العيون والجواسيس لا يمكنون أحدا من الدنو اليه ولا المرور بجانب قصره ، فضلا عن محادثته في المسائل العلمية والسياسية ،

ومتى جاء دوره وجلس على سرير الملك سعى طواشية السودان ومماليك البيضان في وضعه تحت نفوذهم ، وحرصوا على ان لا يفلت من أيديهم ، وفتشوا على أضعف نقطة في قلبه وأخلاقه ، فلا يمضي عليهم كثير حتى يكتشفوها ، فيستميلون قلبه اليهم من تلك النقطة ، ويستفيدون منها لانفاذ كلمتهم وجر المنافع اليهم والى أصحابهم ومن كان من حزبهم وشيعتهم . فيتألف من خدمة القصر الملوكي حزب قوي يسمى كامريلا « Camarilla » وهي كلمة أسبانية معناها جماعة المنفذين في قصر الملك ، فيتداخلون في المسائل ويعارضون في السياسة ويستولون على الامور ، واذا رأوا السلطان مال لصدر أعظم أو وزير انقضوا عليه وسلقوه بألسنتهم وافتروا عليه بإفكهم ، ونسبوه للعجز والتقصير ، وسعوا في تنزيل قدره وترذيله ، لاجل وضعه تحت سيطرتهم ، ولذا كان في الغالب للقهوة جي باشي

والاثواجي باشي والابريقدار والسجاده جي باشي والبستانجي باشي حتى البلطه جي باشي وهو الحطاب — نفوذ كلمة ومكانة أكثر من الصدر وبقية الوزراء ورجال الدولة ، ولا سيما في المسائل المالية وجر المنافع وتوظيف المنتسبين اليهم ؛ ولم تزل رتبة آغا دار السعادة معادلة لرتبة الصدر الاعظم والخديوي المعظم ، ولهم بالفرنساوية لقب سون التس « Son Altesse » كأمراء الافرنج وابناء ملوكها العظام ، ولم يزل أكثرنا متذكرا نفوذ بهرام آغا وأمثاله

شروع الدولة العلية بالاصلاح

لو استمرت أوربا نائمة في ظلام القرون الوسطى لبقيت الدولة العلية سائرة في هذه الطريق العوجاء سير مملكة الصين ؛ أوسلطنة المغرب الاقصى التي انحطت إلى درجة البداوة ؛ بعد ان كان لها في العمران قدم راسخة ، بسبب مهاجرة الاندلسيين اليها ومتاجرتهم في أفريقيا الغربية ؛ ولكن أوربا استيقظت من غفلتها في القرون الجديدة ؛ وأوجدت هذه المدنية العجيبة التي بهرت العالم ؛ وغيرت وجه الارض باكتشافاتها واختراعاتها وعلومها وفنونها وآدابها ، وتجاوزت دول أوستريا (النمسا) وروسيا والبندقية إلى ممتلكات الدولة العلية ،فأحست بالضعف والانحطاط والتقهقر ؛ و بدأت في الاصلاحات الجديدة من عهد السلطان مصطفى خان الثالث ، فأحدثت الطوبخانة ، وأنشأت معملاً لسكب المدافع ، واقبل السلطان سليم الثالث بهمة عالية واقدام على القيام بالاصلاح ، ورتب إدارة الطوبجية والبحرية ، وجلب المعلمين والمهندسين من أوربا ، وأحدث النظام الجديد ؛ فاغتالته أيدي المنون بسبب هيجان الانكشارية الذين فسدت أخلاقهم ، وأصبحوا بلاء مبرما على الامة والدولة ؛ بعد ان كان لهم في الفتوحات العثمانية شأن عظيم ؛ ومفاخر كثيرة مسطورة في تاريخ أوربا العسكري .

ثم جلس السلطان محمود الثاني وازال غائلة الانكشارية ، ونظم العساكر الجديدة ، واجرى من الاصلاحات ماهو مفصل في التاريخ العثماني . واصاب الدولة العلية من الحوادث المهمة ماحملها على الاحتكاك بالدول الاوربية والدخول في ميدان سياستها مثل حروبها مع روسيا ؛ واحتلال نابليون بونابارت لمصر وسوريا ، وخروج محمد علي

باشا، وتبه دللي علي باشا، وحرب الموره، واستقلال اليونان، وحوادث جبل لبنان.
وتداخلت أوربا في شؤون الدولة العلية بداعي المحاماة عن المسيحيين: فروسيا تحامي عن الامم السلافية وجميع المتدينين بالمذهب الارثوذكسي، وفرنسا على الكاثوليك، وانكلترا عن مبشري البروتستانت، وجميعهن يحرضن المسيحيين من رعية الدولة على مقاومة الاستبداد، ويطالبن الباب العالي بإجراء الاصلاحات، ووضع القوانين والنظامات لمنع التعدي على النصارى، ولمساواتهم في الحقوق مع المسلمين. والباب العالي يجد الاستفادة من العداوة القديمة التي غرستها الحروب الصليبية بين المسلمين والنصارى اهون عليه من سوق العساكر وتكبد المصاريف الحربية لتسكين الفتن واخماد الثوارث. وهكذا جرت المذابح وارتكبت الفظائع التي تقشعر الجلود من سماع وصفها، وعادت على الوطن بالويل والخراب كذابح الروم في حرب المورة، ومذابح لبنان في حادثة الشام، ومذابح البلغار في حرب روسيا الاخيرة، وهي التي قام لها غلادستون وقعد، وارغى وازبد، على منبر الخطابة في مجلس العموم الانكليزي، وآخرها الفظائع الارمنية المعروفة، وهي نقطة سوداء في صحيفة التاريخ.

صدارة مصطفى رشيد باشا

فالحوادث التي جرت قبل معاهدة باريس ساقت بعض رجال الدولة الى تعلم اللغات الاوربية ولاسيما الفرنساوية للوقوف على سياسة أوربا ولتنظيم العساكر البرية والبحرية، وكان لاكثر المتعلمين نسبة وتردد على مصر التي شرعت بالاصلاحات على عهد محمد علي باشا. ونبغ من رجال الدولة مصطفى رشيد باشا السياسي الشهير ابن مصطفى افندي متولي وقف السلطان بايزيد، وكان مولده في الاستانة (١٢١٤ه) فقرأ القرآن ومبادئ العلوم الاسلامية وأجاد الخط وتعلم شيئا من مبادئ اللغة الفرنساوية، ودخل في معية نسيبه الصدر الاسبق اسبارطه لي علي باشا، وذهب الى مصر مرارا وخالط رجالها وتقلب في مناصب الدولة العلية وفي سفارة باريس ولونده، فاكمل تحصيل اللغة الفرنساوية واطلع على دقائق السياسة وخوافيها، وكانت المسألة الشرقية شاغلة وزارات اوربا بسبب اجتهاد روسيا في جمع كلمة الامم السلافية وطمعها في الاستيلاء على القسطنطينية. وروسيا اكبر الدول الاوربية واكثرها

نفوسا وأشدها خطرا على الموازنة السياسية . فكانت الدول الاوربية وفي مقدمتهن انكلترا التي هي أحرص الدول على مقاومة السياسة الروسية ، تشوق الدولة العلية الى القيام بالاصلاحات الجديدة لتستعيد قوتها السابقة فتحمي نفسها وتكون لبقية الدول سدا منيعا امام هجوم روسيا

فلما جلس السلطان عبدالمجيد خان (تموز « يوليو » سنة ١٨٣٩) كان مصطفى رشيد باشا سفيرا في لوندره فتعين ناظرا للخارجية وحضر للاستانة وكان له رأي ودخل كبير في التنظيمات ، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة المذكورة قرأ بحضور رجال الدولة وأعيانها والسفراء الاجنبية الخط الشريف السلطاني المعروف بالتنظيمات وكانت قراءته في كلخانة (أي دار الورد) وهي من دوائر السراي القديمة (طوب قبو) التي بجانب جامع ايا صوفيا . ولذا اشتهر بخط شريف كلخانة واشتمل على تأمين الرعية على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، وعلى قاعدة مطردة في استيفاء الاموال الاميرية ، وعلى أخذ العسكر بالقرعة وتعيين مدة الخدمة ، والغاء الامتيازات ، وطرح التكاليف بنسبة ما لكل واحد من الثروة ، ومساواة الرعية أمام القانون ، والغاء المصادرة والانغارية وهي الاجبار على العمل بلا أجرة وتعرف بالسخرة ، ونحو ذلك مما هو مدرج في هذا الفرمان المعروف بالتنظيمات جمع كلمة تنظيم العربية

فالدولة العلية انما أصدرت هذه التنظيمات إرضاء لاوربا ولا سيما انكلترا . والامة الاسلامية لم تفهم معنى هذه التنظيمات ولا معنى تأمين الناس على الارواح والاموال والاعراض ، كأن الشريعة التي كانت دستور العمل تبيح التجاوز والتعدي على الارواح والاموال والاعراض ، وحاشاها من ذلك . فالبلاء لم يكن سببه فقدان القانون والشريعة حتى يزول باصدار هذه التنظيمات وانما سببه الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة . فالحرية التي منحتها التنظيمات لم تكن شيئا مذكورا بجانب الحرية التي منحها القرآن لو زال عنه الاستبداد والجهل المستوليان على المسلمين ، فيجتهدون في فهمه وتأويله على مقتضى نواميس المدنية الحاضرة كما فعل احرار العلماء كالشيخ محمد عبده وغيره

فشرعت الدولة العلية في اجراء الاحكام المشار اليها في التنظيمات وسنت

قانونا لاخذ العسكر جرى تطبيقه في بعض الأيالات وأحدث في بعضها ثورة وعصيانا كعصيان الارناؤط (١٨٤٤) الذي سكنه رشيد باشا نفسه ثم باشرت في تنظيم المعارف وفتح المكاتب في الاستانة ونظمت محاكم التجارة المختلطة (١٨٤٦) كما نظمت بعض دوائر الدولة واقلامها . فكان مصطفى رشيد باشا الذي تولى مسند الصدارة العظمى ست مرات وتوفي سنة ١٢٧٤هـ - ١٨٥٨م — مصدر هذه الاصلاحات، بسبب وقوفه على الافكار الجديدة ومعرفته اللغة الفرنساوية والادبيات العثمانية . فسعى في افراغ الكتابة التركية في قالب سهل سلس، بعد ان كادت تكون غير مفهومة عند العموم، لكثرة ما فيها من التعقيد والتشابيه الغامضة والالفاظ والتراكيب اللغوية من فارسية وعربية . ونشأ في عهده وتحت ظله الشاعر الشهير ابراهيم شناسي افندي موجد الادب الجديد العثماني . حصل العلوم العربية واللغة الفرنساوية، وذهب لباريس فاطلع فيها على آداب الطريقة المدرسية ونسج على منوال راسين ولا فونتين وأدخل في الادب التركي التعقل المشروط في الطريقة المدرسية كما فصلنا ذلك في كتابنا « تاريخ علم الأدب »

وكان الادب التركي كله خيالات ومبالغات أعجمية قلما يجد الانسان فيه حكمة وتعقلا، وديوان شناسي صغير الحجم، لكنه نموذج للادب الجديد، وأكثر قصائده في مدح مصطفى رشيد باشا . وأنشأ شناسي جريدة تركية سماها (تصوير افكار) وحرر فيها المقالات السياسية والتاريخية والادبية بقلم سهل سلس مفهوم . وطبع ديوانه مع منتخبات (تصوير افكار) ثانية في مطبعة ابو الضيا توفيق بك، وكانت وفاة شناسي في سنة ١٢٨٨هـ قبل بلوغه سن الشيخوخة والوظائف العالية

عالي باشا وفؤاد باشا

ظهرت فئة قليلة من المتعلمين على النسق الجديد واقتفوا أثر مصطفى رشيد باشا، ونبغ منهم اثنان شهيران خلد التاريخ ذكرهما وهما السيد امين عالي باشا وفؤاد باشا، ومولدهما في سنة ١٢٣٠هـ الاول ابن مصر جارشيلي علي رضا افندي اي المنسوب

لسوق مصر وهو سوق العطارين . والثاني ابن الشاعر الشهير كجه جي زاده عزت ملا الذي نفي للاناطول في زمن السلطان محمود خان ومات في منفاه . فتعلم امين مبادي العلم واجادة الخط وقرأ الفرنساويه على معلم مخصوص ودخل قلم الديوان الهمايوني في الخامسة عشرة من عمره

ومن عادة رؤساء القلم تسمية كل داخل باسم يتميز به عن سميه ، ولم يصطلحوا كالعرب والافرنج بتسمية الولد باسم ابيه أو أسرته . وكان امين قصير القامة فسمي (عالي) تسمية بالضد تفاؤلا بعلو همته . فذهب الى أوربا في كتابة السفارات واتقن الفرنساويه وانتسب لرشيد باشا وامتاز في فنون السياسة والمعارف العصريه وعين عضوا في (انجمن دانش) اي مجلس المعارف المؤسس على نسق اكادميات اوربا . وكان عالي باشا يحسن الفرنساويه والتركية كتابة وانشاء ، وتقلب في وظائف كثيرة مهمة مثل السفارات والوزارات ومسند الصدارة العظمى . وأما فؤاد فدخل المكتب الطبي العسكري وخرج جراحا في العسكريه ، ثم دخل قلم الترجمة في الباب العالي وتقلب في الوظائف السياسية والخارجية ، وترأس مجلس التنظيمات ومجلس الاحكام العدلية وحضر الى سوريا أيام الحادثة وكان اذ ذاك ناظراً للخارجية ، ثم ذهب بمعية السلطان عبد العزيز الى معرض باريس سنة ١٨٦٧ ومرض فيها وتوفي في نيس من فرنسا وله من العمر ٥٥ سنة فقط ، وكان في اللغة التركية أديبا شاعرا وضع مع جودت باشا القواعد العثمانية التي لم يؤلف للآن احسن منها ، وخلف الفريق كجه جي زاده عزت فؤاد باشا الكاتب الشهير

فرشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا هم نوابغ السياسة العثمانية وواضعو الاصلاحات الجديدة بدلالة السفراء الاجانب ارضاء لدول اوربا ولا سيما انكلتره ، ومماشاة لها لحرصها على تقويه الممالك العثمانية لتتقي بها شر روسيا فأمر هؤلاء النوابغ بترجمة القوانين والنظامات والتعليمات والاوامر المدرجة في الدستور ترجمة حرفية ، ولم يجدوا لهم وقتا لدرس احتياجات البلاد الداخلية والمدنية الاسلامية حق درسها ، ولا لنشر الافكار الجديدة بين المسلمين المفاخرين بسابق مجدهم ومتانة شرعهم ، ولذا لاموا هؤلاء المصلحين ولم يرضوا عن اعمالهم زاعمين انها تؤول إلى قلب البلاد وجعلها

افرنجية محضة . ولذا كانت الاكثرية لحزب تركيا القديمة ، ولم يكن من حزب تركيا الفتاة الا فئة قليلة ، درسوا العلوم الجديدة درسا سطحيا و بعضهم زار اوربا مرة أو مرتين . ومع هذا وفق حزب تركيا الفتاة لاستمالة اوربا اليه ، وافلح في الحصول على اتفاق انكلتره وفرنسا وساردينيا اي ايطاليا ، فحاربن روسيا وانتصرن عليها في حرب القرم وعقدن معاهدة باريس (٣٠ مارس سنة ١٨٥٦) واعترفت اوربا بمقتضاها بتمام ملكية الدولة العثمانية واستقلالها ، ومنع اية دولة من المداخلة في أمورها الداخلية ، وصدر خط شريف ثان في ذلك التاريخ أيضا مؤيد لخط كلخانه ، و يشتمل على حرية الاهالي ومساواتهم في الحقوق والمعاملات . ثم جلس السلطان عبد العزيز خان سنة ١٨٦١ واصدر فرمان الاصلاحات ولكن هذه الفرمانات والخطوط الشريفة السلطانية لم تمنع تماما سوء الاستعمال والاستبداد الذي في ادارة الدولة ، وبقي الارتكاب والظلم والاستبداد على ما كان عليه سابقا ، لعدم اصلاحهم السراي السلطانية كما أصلحوا وجاق الانكشارية والصباهية وقلبوهما الى النظام الجديد

حزب تركيا الفتاة

أول مؤسس لحزب تركيا الفتاة هو مصطفى فاضل باشا ابن ابراهيم باشا المصري ثم صهره خليل شريف باشا . ولد مصطفى فاضل في القاهرة سنة ١٨٣٠ م وحصل العلوم الجديدة حتى صار على جانب من العرفان والاضطلاع والوقوف على دقائق الامور ، فخدم في مصر و بعد جلوس السلطان عبد العزيز بسنة تعين ناظرا للمعارف في الاستانة ، ثم ناظرا المالية وأجرى فيها عدة اصلاحات ، وكان ميكروب الاقتراض قد تفشى في هذه النظارة ، وأحدث بلاء القوائم النقدية ، حتى بلغت الديون ما بلغته فأثقلت كاهل الامة ، وكان الصدر الاعظم اذ ذاك يوسف كامل باشا صهر والي مصر محمد علي باشا ، ومترجم تلماك التركية الترجمة الاولى العويصة ، وكان عالي باشا في نظارة الخارجية ، وفؤاد باشا في رياسة مجلس الاحكام العدلية ، ثم في نظارة الحربية ، وأدخل فيها حسين عوني باشا العدو الالد لعمر باشا المجري . وكان فؤاد باشا تعين حكما لفصل الخلاف الحادث بين مصطفى فاضل باشا واخوته على تقسيم ميراث أبيهم فحصل بينهما رقابة وعداوة ، فلما تولى

فؤاد باشا الصدارة تسبب في عزل مصطفى فاضل من نظارة المالية مع ماله من الخدم والاصلاحات المفيدة ، فشق ذلك على مصطفى فاضل وقدم للسلطان عبد العزيز خان لائحته الشهيرة التي شدد فيها النكير على الاستبداد ، وكشف الغطاء عن عورات الدولة ، و بين اسباب الضعف والانحطاط وسوء الاستعمال بحرية لم يعتدها رجال المابين ولا سمعوا بمثلها قبل ذلك ، ثم هاجر الى باريس سنة ١٨٦٥ ولحقت به فئة من الشبان فأكرم مثواهم وأنفق على تعليمهم ، ونبغ منهم كثيرون في الادب والكتابة والسياسة . حدثني أحدهم قال كنا في باريس في عيشة راضية لا يهتم الواحد منا بأمر معايشه ، فاذا فرغ من الدرس والتحقيق والمشاهدة عاد الى منزله فوجد ما يحتاج اليه من الطعام والمنام ، بخلاف أحرار هذا الزمان الذين قاسوا أشد العذاب في أمر معايشهم

فاشتغلت النابتة الجديدة بفنون الادب وعلوم التاريخ والسياسة والصناعات النفيسة ، فنظموا الشعر وألفوا القصص ونشروا المقالات في الجرائد ، ونبغ منهم نامق كمال بك شاعر النشأة الجديدة وأديبها وموجد الادب الجديد العثماني ، ولد في الاستانة سنة ١٢٥٠ هـ وقرأ في المكاتب وتعلم الفرنساوية وصارت له مهارة زائدة في الانشاء الذي نشر به مقالاته السياسية في الجرائد بأسلوب مستحدث طريف هو من السهل الممتنع ، واشعاره على نسق اشعار فيكتور هوجو في طلب الحرية وتدبير المملكة واصلاح شؤون الحكومة ، وله مؤلفات كثيرة منها التاريخ العثماني الذي لم يطبع ، وقصة وطن أو سليستره التي تمثل اليوم في الاستانه وسلانيك بعد حدوث الانقلاب ، وتوفي نامق كمال بك وهو متصرف في جزيرة ساقز سنة ١٣٠٥ هـ . ومنهم ضيا باشا الاديب الشاعر ، وسعد الله باشا سفير فينا الأسبق مترجم قصيدة لامارتين التي عنوانها (البحيرة) ، وله اشعار عصرية رائقة . ومنهم بو الضيا توفيق بك الذي أصلح حروف الطبع وكتب الخط الكوفي ، وطبع الكتب والرسائل والمجموعات بصنعة بديعة عجيبة لم تبلغها إلى الآن مطابع الشرق ولا مطابع أوربا الشرقية . وعبد الحق حامد بك سفير بروكسل وصاحب قصة طارق بن زياد ، وكثير غيرهم من الكتاب والأدباء انصار حزب تركيا الفتاة

الذي أسسه مصطفى فاضل باشا ، ثم صهره خليل شريف باشا الذي جاء من مصر إلى الاستانة وتوظف في نظارة الخارجية بسبب معرفته الفرنساوية ، وصار سفيرا لباريس وغيرها وناظرا للخارجية ، وتزوج بأكبر بنات مصطفى فاضل باشا وهي الاميرة الشهيرة نازلي خانم التي اقتفت أثر والدها وزوجها الاول في تعضيد حزب تركيا الفتاة ، وساعدته بالمال والجاه هي وشقيقها الامير محمد علي باشا

لائحة فاضل باشا للسلطان عبد العزيز

لخص مصطفى فاضل باشا سياسة تركيا الفتاة في اللائحة المذكورة التي قدمها إلى السلطان عبد العزيز خان وقال فيها :

« تتصور أوربا ان المسيحيين وحدهم في تركيا خاضعون للمعاملات الاستبدادية ، ولاحتمال أنواع الاذى والتحقير المتولد من الظلم ، وليس الامر كذلك ، فان المسلمين ربما كان الظلم والعسف أشد وطأة عليهم ، وهم أكثر انحناء تحت نير العبودية من المسيحيين ، لان المسلمين ليس وراءهم دولة أجنبية تتحيز لهم وتحامي عنهم ، فرعايا جلالتكم من جميع المذاهب مقسومون إلى صنفين : الظالمين ظلما لاحد له ، والمظلومين بلا شفقة ولا مرحمة ، والاولون يجدون في الحكومة المطلقة غير المقيدة التي تستعملها جلالتكم والتي اغتصبوها — إغراء وتشويقا إلى جميع الرذائل . وأما الآخرون فتفسد اخلاقهم أيضا بعلاقاتهم الضارة مع سادتهم ، وبما انهم مجبرون على الخضوع دائما للشهوات الرذيلة ، ولا يستطيعون إيصال شكاياتهم الصحيحة إلى أعتاب سدتكم الملوكية ، لان ظلامهم يرون هذه الاستغاثة — مع الاحترام — بحكومة جلالتكم من أكبر المفاسد ، فاعتادوا على دناءة الاخلاق التي لا يمكن تصورها » »

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فهذه الاصول الاستبدادية التي كان اعداء الاصلاح من حزب تركيا القديمة يريدون المحافظة عليها ، و يعدون التمسك بها من الغيرة الدينية والحمية الوطنية ، والاسلام والوطنية بريئان منها للأسباب المشروحة فيما مر . فحزب تركيا الفتاة يمكننا ان نعتبر وجوده منذ تولى مصطفى فاضل باشا نظارة المعارف (١٨٦٢ م) ، وهاجر الى باريس (١٨٦٥ — ١٨٦٧ م) وانصار هذا الحزب هم جميع المطلعين على

الكتب الفرنساويه" وأدب الطريقة المدرسية" أوعلى ما ترجم منها بالتركيه" والذي طلق عليه هذا الاسم هم الفرنساويون الذين قالوا (جون تركي) كما يقولون (جون فرانس — جون ألمانيا — جون ايتالي) فترجم بتركيا الفتاة وقيل بالتركيه" (كنتج تركلر) ، ولذا قال هانوتو: إن تركيا الفتاة من اللغة" الفرنساوية . وقد جوزي مصطفى فاضل باشا على جرأته بمصادرة أمواله ، ثم أعيدت اليه بوساطة بعض الاجانب ، ثم حرم من ميراث الخديوية هو وحليم باشا بسبب صدور الفرمان السلطاني بانتقالها إلى أكبر أولاد المالك وهو إذ ذاك اسماعيل باشا ، وصار مسند الخديوية ينتقل من الوالد إلى ولده ، بعد ان كان ينتقل إلى الاكبر فالاكبر من الاسرة ، كما هي القاعدة في جميع الممالك الاسلامية، لما علمت من ان الاسلام ليس فيه ملك موروث،

وفي سنة" ١٢٧٨ هـ و١٨٧١ م أصيبت المملكة" العثمانية" بوفاة اشهر قوادها عمر باشا ، وأشهر سواسها الصدر الاعظم عالي باشا صاحب الاعمال الكثيرة في تنظيم ادارة الحكومة" ، ووضع ميزانية" للمالية" ، وتأسيس نظارة الداخلية" والاوقاف، ومجالس الدعاوي والتمييز وتنظيم أصول المحاكمات واستعمال الاصول الاعشاريه" ، وغير ذلك من الاصلاحات الداخلية" والسياسية" الخارجية، وترجمت القوانين والنظامات عن الفرنساويه" بلا نظر ولا معرفة" بمصالح البلاد واحتياجاتها فترجموا مثلا قانون التجارة الفرنساوي القديم وأبقوا فيه مسائل النكاح و (الدوتة") واشتراك الزوجين بالاموال وعدمه ، كما هو مختص بالاوربيين ولا وجود له في الشرق، لا عند المسلمين ولا عند المسيحيين . وبعد وفاة عالي باشا تولى مسند الصدارة محمود نديم باشا ومال إلى روسيا حتى سمي « نديموف» وبذر اموال الخزينه" وأصبح آلة" في يد الجنرال اغناتيف سفير روسيا في الاستانه"

صدارة نديم باشا الاولى

محمود نديم باشا كان أبوه واليا ، فتربى في داره على الاستبداد والارتكاب ، وتعين واليا كأبيه ثم ناظرا للبحرية" ، وكان شديد التعصب للإدارة القديمة المستبدة" ، كثير البغض للاصلاحات الجديدة والحرية . تقرب الى السلطان عبد العزيز خان بالتملق ، واستولى عليه من أضعف نقطة فيه وهي العظمة" ، فدس له بانه تحت وصاية

فؤاد باشا وعالي باشا، مع انه خليفة الله في الارض ، والقابض على رقاب خمسين مليونا من الرعية الذين هم عبيد جلالته !!! ، وان بيت المال هو حق من حقوقه له ان يتصرف فيه حسبما شاء وأراد !! ، وكانت الميزانية المالية وضعت في أيام عالي باشا وفؤاد باشا، وحدد فيها مصارف المابين، فانقلبت أحوال السلطان عبد العزيز خان في صدارة محمود نديم، واستبد بالامر ، وأبعد عن الوظائف الملكية والعسكرية الرجال الذين تخيرهم عالي باشا ودربهم وعلمهم حتى كانوا من خيرة الموظفين، فاستبدل بهم المرتكبون وكثر تحويل الوظائف والعزل والنصب والترقي في جميع الوظائف الملكية والعسكرية، حتى كان الضابط يرتقي إلى المراتب العلى في أقرب وقت، ويصبح مشيرا، بعد ان كان من قبل أشهر ضابطا صغيرا . وزاد الاسراف والتبذير ببناء السرايات التي لا لزوم لها وإنشاء الاسطول الذي صار أثرا بعد عين كما زاد الانهماك في الملذات والشهوات ، وكانت أوربا وصيارفة الاستانة تقرض الاموال بالربا الفاحش والديون تترا كم على خزينة الدولة ، والمكلفون بها هم فقراء الرعية من أصحاب الاعشار والاغنام يؤدونها من كد اليمين وعرق الجبين .

ومن الغلطات السياسية في صدارة محمود نديم باشا اصدار الفرمان بفصل الكنيسة البلغارية عن الكنيسة الرومية ، وتعيين اكسارخوس للبلغار مستقل عن بطريرك الروم في القسطنطينية ، وكان ذلك بمساعي الجنرال اغناتيف حبيب محمود نديموف باشا للتوصل إلى احداث دولة للبلغار، مع ان الباب العالي كان يعتبر جميع هؤلاء الامم الصغيرة كالبلغار والصرب والافلاخ والبغدان والجبل الاسود والهرسك روما تابعين لبطريركية القسطنطينية لاشتراكهم جميعا في الدين الارثوذكسي. ومن الغلطات المالية أيضا إعطاء المثري النمساوي اليهودي الشهير وهو البارون هرش امتياز سكة حديد الروم ايلي المعروفة بسكك الحديد الشرقية ، واضرار الخزينة والامة من وراء ذلك ضررا كبيرا ، وفي اثناء ذلك ظهر مدحت باشا في مسند الصدارة :

صدارة مدحت باشا الاولى

ولد مدحت باشا في القسطنطينية سنة ١٨٢٢ م ، ووالده حاج علي افندي أصله من روسجق التي كانت مركز ولاية الطونه (بلغارستان) على ضفة نهر الطونه (الدانوب)

اليمني، ولما كان من صغار الموظفين لم يستطع تعليم ابنه غير مبادي العلوم وحسن الخط المعدود في ذلك الدور من أكبر العلوم وأهمها للدخول في الوظائف والترقي فيها، وأدخله على حداثة سنه قلم الصدارة فتخرج في اقلام الباب العالي، وتعلم بالمشاهدة والتجربة والاختبار، وتعين مأمورا في الولايات ومكث سنتين في دمشق الشام، وترقى الى أن صار باشكاتب في مجلس (والا) وهو شورى الدولة، وذهب مرة ثانية الى دمشق وحلب للتحقيق عن القبرصلي محمد باشا، والفت باستعداده واجتهاده نظر رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا ورفعت باشا ناظر الخارجية اليه، فاجلسه معه رفعت باشا ليسمع المحاورة التي دارت بينه وبين البرنس منجيكوف مندوب دولة روسيا وذلك قبل حرب القرم، فاطلع مدحت باشا حينئذ على السياسة الخارجية، وبعد وفاة رشيد باشا سنة ١٨٥٨ م تولى الصدارة عالي باشا فأذن لمدحت بالذهاب الى اوربا مدة ستة اشهر، فذهب الى باريس ولوندره وبروكسل وفينا، وشاهد انتظام الادارة ومحاسن المدنية والترقيات العصرية. ومازال يرتقي في الوظائف حتى صار والي ولاية الطونة (بلغارستان الحاليــة) فأجرى فيها اصلاحات كثيرة، وفتح مجلس الايالة وهو المجلس العمومي الذي فتحه راشد باشا في سوريا، ثم عين واليا لولاية بغداد ومشيرا لعساكرها فسكن عصيان نجد، واهداه السلطان عبد العزيز خان سيفا مكافأة له على خدمه، واذ كان الصدر الاعظم محمود نديم باشا كثير العزل والنصب والتبديل نقل مدحت باشا من ولاية بغداد الى ولاية ادرنه، فمر بكرسي السلطنة وطلب مقابلة الحضرة السلطانية واراها طرق الخلل وسوء الادارة وعاقبة الامر، فعزل محمود نديم من الصدارة وتولاها مدحت باشا لكنه لم يبق فيها الا ثلاثة أشهر، وكان سبب عزله على ماروي: ان احدى سراري القصر بعثت اليه مع الطواشي طالبة تعيين احد خدامها قائمقام في أحــد الاقضية فأجابه مدحت «سلم على الخانم وقل لها ان تلتمس هي بنفسها من أفندينا ذلك» واشتد غضبه من مداخلة السراري وتتابع رجائهم

صدارة نديم باشا الثانية

كثر تبديل الصدور بعد عزل مدحت حتى بلغوا نحو العشرة في خلال سنة أو خمسة عشر شهرا، ثم عاد الى الصدارة محمود نديم باشا وكان العود غير احمد،

فزاد الارتكاب ، وبيعت الرتب والنياشين ، كما بيعت الوظائف بالمزاودة ، بحيث اصبح يمتحنها الذي يزيد في الثمن ، واختلت الموازنة المالية حتى قضت باعلان الافلاس في ٥ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٧٥ ، وطمع العدو في البلاد ، فأوجب ذلك هيجان تركيا الفتاة وعقلاء الامة ، وكان التجسس غير معروف في ذلك الوقت ، وكان الجرائد حرية في الكتابة والانتقاد ، فشرعت جريدة « وقت » التركية في نشر الحكايات والاساطير عن ملوك الصين ، واستنتاج الامثال والمواعظ من انقراض ملكهم ، والتعريض بذلك لوزارة محمود نديم باشا ، واخذ فريق من الناس يطوفون على المجالس والدواوين والاندية العامة ، ويقصون أنواع المظالم والارتكاب وسوء الادارة ، فهاجت الافكار العمومية ولا سيما الصوفتاوات وهم طلاب العلوم الدينية البالغ عددهم في جوامع الاستانة نحو خمسة عشر الى عشرين الف طالب .

هياج الصوفتاوات وصدارة رشدي باشا

اجتمع من هؤلاء الطلاب زهاء خمسة أو ستة آلاف طالب ، وهجموا على الباب العالي في ٢٢ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ وذهب آلاف منهم الى سراي طوله باغجه مقر السلطان عبد العزيز فشكوا اليه طالبين عزل محمود نديم وتولية محمد رشدي باشا ، فأجيبوا إلى ذلك ، وصدرت الارادة السنية بتشكيل الوزارة وتولية محمد رشدي باشا الصدارة ، وحسين عوني السرعسكرية ، وقيصرلي أحمد باشا نظارة البحرية ، وراشد باشا الذي كان واليا على سوريا نظارة الخارجية ، وخير الله افندي مشيخة الاسلام

خلع السلطان عبد العزيز

كان حزب مدحت باشا من الاحرار مؤلفا من نامق كمال بك وضيا بك ورؤف بك واسماعيل بك ، وهؤلاء لم يرتقوا الى رتبة الباشاوية ، وأما الذين ارتقوا منهم إلى هذه الرتبة بعد ذلك فهم حسن فهمي باشا وشاكر باشا وسعد الله باشا ورائف باشا ورفعت باشا وكانوا من الوزراء ، فلما تولى حزب تركيا الفتاة زمام الامر ،

واستولى على المالية ، والقوة البرية والبحرية والشرعية ، خلعوا السلطان عبد العزيز في ١٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ و ٣٠ مايس (مايو) سنة ١٨٧٦ بفتوى من شيخ الاسلام ، واجلسوا ابن أخيه السلطان مراد خان ، ففرح به الناس واستبشروا وكان السير هنري اليوت سفير انكلتره أشد السفراء سرورا ، والجنرال اغناتيف سفير روسيا أكثرهم غما ، وهو حبيب محمود نديم باشا والمشير عليه بتلك السياسة العوجاء ، ونقل السلطان عبد العزيز من سراي طولمه باغجه إلى سراي طوب قبو المقابلة لها على ساحل البحر . ثم نقل بناء على طلبه إلى سراي جراغان المجاورة لطولمه باغجه على ساحل المضيق (البوغاز) وبعد خمسة أيام وقع الاغتيال واختلف فيه هل كان بطريق الانتحار أو القتل عمدا ، فان الذين كشفوا على الجثة وجدوها في الطبقة السفلى من السراي على سجادة بقرب الباب ، ففي انزالها من الطبقة العليا المعدة للسكنى الى الطبقة السفلى شبهة ، وعلى فرض ثبوت الجناية فمن عساه يكون المتهم بها ! هل حريم السراي وطواشيتها الذين تكثر بينهم الدسائس ويصعب التحقيق ؟ أو مدحت باشا وحزبه الذين لا مأرب لهم بذلك ؟ وقد توصلوا الى مأربهم بدون إراقة دم ، واستحقوا إجلال العالم لهم من عثمانيين وأوربيين ، وهم أعقل وأدهى من ان يلوثوا عملهم العظيم بدم جناية ودسيسة مثل هذه

حادثة الجركس حسن بك وخلع السلطان مراد

ثم حدثت مسألة الجركس حسن بك ياور السلطان عبد العزيز ، فانه دخل دار مدحت باشا والوزراء مجتمعون فيها ، وقتل السر عسكر وراشد باشا ناظر الخارجية ووالي سوريا قبلا وأحمد آغا الخادم وجرح ناظر البحرية وبعض الياورية الحاضرين ، فأثرت هذه الحوادث في السلطان مراد وادت الى اختلال شعوره فخلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام من جلوسه

جلوس السلطان عبد الحميد

جلس على سرير الملك جلالة مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني بعد ان اشترط مدحت باشا وحزبه ثلاثة شروط : (١) إعلان القانون الاساسي (٢) استشارة الوزراء وجعلهم مسؤلين وحدهم في أمور الدولة (٣) تعيين ضيا بك وكمال بك

كاتبين خاصين للمابين وسعد الله بك باشكاتب لانهم من الاحرار الحريصين على تنفيذ احكام القانون الاساسي ، والاولون ممن قاموا بتسويده وتنميقه . فلم يعمل بهذه الشروط وتعين الداماد محمود جلال الدين باشا مشيرا للمابين ، وانكليز سعيد باشا رئيسا للياورية ، وكجوك سعيد باشا الصدر الاسبق في هذه الآونة وكان سعيد بك باشكاتب للمابين

مؤتمر الاستانة واعلان القانون الاساسي وصدارة مدحت باشا الثانية

كانت بلاد البلقان في اختلال وهيجان بسبب قيام الهرسك والصرب والجبل الاسود والبلغار وتأففهم من الظلم والاستعباد، ومطالبتهم بالاستقلال ، وتمسك كل منهم بقوميته وأدب لغته ، بعد ان كان الدين المسيحي الارثوذكسي يجمعهم تحت سلطة بطريرك القسطنطينية . وكانت أوربا تطالب الدولة العلية باجراء الاصلاحات ، والعناية بالمسيحيين التابعين لها ووقايتهم من الظلم والاعتساف ، فتقرر عقد مؤتمر (قونفرانس) في الاستانة العلية لاتخاذ التدابير اللازمة لتسكين البلاد واصلاحها ، وكان المؤتمر مؤلفا من احد عشر مندوبا ، اثنين من انكلترة وهما سفيرها السير هنري اليوت واللورد سالسبوري ، واثنين من فرنسا ، واثنين من اوستريا (النمسا) ، وواحد من روسيا وهو الجنرال اغناتيف ، وواحد من ايطاليا ، وواحد من المانيا ، واثنين من قبل الدولة العلية وهما صفوت باشا وأدهم باشا ، فعقدوا جلستهم الاولى في ٢٣ كانون الاول (دسمبر) سنة ١٨٧٦ في دائرة الترسانة التي على خليج دار السعادة من جهة غلطه . ولم يكد يتم افتتاح المؤتمر الا وقد سمعوا اصوات المدافع ، فوقف صفوت باشا قائلا: أيها السادة ان اصوات المدافع التي تسمعونها هي دلالة على اعلان القانون الاساسي من قبل جلالة سلطاننا الاعظم ، وهذا القانون متكفل الحقوق والحرية لجميع رعايا المملكة العثمانية بلا استثناء ، وقد حصل بذلك المقصود من عقد المؤتمر ، فأصبح انعقاده وعمله من قبيل العبثيات

فبهت القوم وانفضت الجلسة . وقد اعلن القانون الاساسي حقيقة في ذلك اليوم ، واطلق لدى اعلانه مئة مدفع ومدفع في جميع المدن والممالك العثمانية ذات القلاع . وكان مدحت باشا هو روح هذا الانقلاب العظيم وهو القابض على زمام الامر في الحقيقة منذ

خلع السلطان عبد العزيز وان لم يكن (صدر اعظم)، وكان الصدر الاعظم اذ ذاك محمد رشدي باشا شيخا مسنا منقاداً له ولحزب تركيا الفتاة، وبعد جلوس السلطان عبدالحميدخان الثاني استعفى محمد رشدي باشا للشيخوخته، وتولى الصدارة العظمى مدحت باشا وهي صدارته الثانية ،

لم يرض الجنرال اغناتيف بهذه الاصلاحات بل أصر على بقاء انعقاد المؤتمر، فداوم اعماله وقدم لائحة الى الباب العالي في ١٥ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٧ وطلب الجواب عنها في خلال ثمانية أيام، فكانت من قبيل (الأولتيماتوم)

عقد المجلس العالي ورفضه لائحة مؤتمر الاستانة

عقد الصدر الاعظم مدحت باشا مجلسا عاليا مؤلفا من الوزراء والمشيرين ورجال الدولة والرؤساء الروحيين واعيان المسلمين والمسيحيين واليهود، وعرض عليهم لائحة المؤتمر، وافهمهم مطالب الدول الأوربية، وانّ ردّها يؤدي إلى الحرب، فتشاوروا بكمال الحرية وابدى كل منهم رأيه ، فقال رؤف بك ابن رفعت باشا ناظر الخارجية الاسبق إذ ذاك : الحرب كداء الحمى يمكن ان تنجو منه، ولكن لائحة المؤتمر كداء السل الرئوي عاقبته القبر لا محالة . وقال صاوا باشا من خطبة طويلة : اننا نختار الموت على إهانة شرفنا، وألقى وكيل بطريرك الارمن الكاثوليك مقالة طويلة في رد اقتراحات المؤتمر، فرفض المجلس قبولها بالاتفاق وظهر من هذا الاجتماع ائتلاف المسلمين والمسيحيين واليهود، واتفاقهم واتحادهم على محبة الوطن وترقيه والغيرة على منافعه، وكان الروم والارمن الكاثوليك أشدهم حماسة، حتى ان الروم عزموا على تشكيل فرقة متطوعة لمحاربة الصرب مع العساكر العثمانية ، لان استقلال الامم البلقانية من الصرب والجبل الاسود والبلغار مضر بصالح الروم لانفصالهم عن الكنيسة الارثوذكسية، التي هي تحت رياسة بطريرك الروم في القسطنطينية، ورفضهم استعمال اللغة والادبيات اليونانية، فبناء على جميع ذلك أجاب الباب العالي في ٢٠ كانون الثاني (يناير) برفض مطالب الدول المذكورة في لائحتهن ، فانفض مؤتمر الاستانة وغادرها المندوبون والسفراء دلالة على قطع العلاقات بين أوربا والباب العالي

تغلب حزب التقهقر وكتاب مدحت للسلطان

كان الحزب المخالف للقانون الاساسي يسعى في التخلص من هذا القانون ، فبعد تعيين مدحت باشا في الصدارة انعقد مجلس الوكلاء برياسته في دار الداماد محمود جلال الدين باشا ، وتذاكروا في القانون الاساسي ، فارتأى أحمد جودت باشا ناظر العدلية (الحقانية) تأجيل هذا القانون لعدم الحاجة اليه (؟) بسبب جلوس السلطان الحالي!!، وكان أحمد جودت باشا من المنتسبين الى الداماد محمود جلال الدين ، ومن كبار العلماء والمؤرخين ، ولكن ارتشاءه مشهور في الاستانة والولايات ، واعلان القانون الاساسي يسد على المرتكبين أمثاله باب الارتكاب ، فبإصرار مدحت باشا وحزبه مثل ضيا بك وكمال بك وغيرهم من الاحرار الذين مر ذكرهم وبجريدتي (وقت) و (استقبال) والمقالات الشائقة المحررة فيهما — صدر الخط الشريف السلطاني إلى مدحت باشا باعلان القانون الاساسي ، وحمله الباشكاتب سعيد بك الى الباب العالي ، وتلي في الميدان الواسع الذي امام الباب بحضور جماهير الناس ، وبعد تلاوته خطب مدحت باشا في الموضوع ، وتلا الدعاء فوزي افندي مفتي أورفه وأمن الناس ، وما زال مدحت باشا يلح في طلب اجتماع المبعوثان ، ويجتهد في تأليفه من الاحرار ، والمابين يؤخر ذلك ويفرق جميع الاحرار ، حتى انه أراد تعيين ضيا بك مسود القانون الاساسي سفيرا في برلين لئلا ينتخب مبعوثا عن أهل الاستانة . فضاق صدر مدحت باشا من التأخير والمحاولة وكتب إلى الذات الشاهانية مباشرة : « لم يكن غرضنا من اعلان القانون الاساسي الا محو الاستبداد ، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات ، وتعيين وظائف الوكلاء ومسئوليتهم ، وتأمين جميع الناس على حريتهم ، حتى ترتقي البلاد في معارج الارتقاء — الى أن قال — واني لكثير الاحترام لشخص جلالتكم ، ولكن الشرع الشريف يوجب علي أن لا أطيع اموركم (أوامركم) اذا لم تكن موافقة لمنافع الامة »

ونحو ذلك مما لم يسمع بمثله الا من مصطفى فاضل باشا كما تقدم . و بالحقيقة ان احكام الشريعة الاسلامية وفتاوى الفقهاء في هذا الصدد لا تترك ادنى شك ولا ريب ، لان السلطان بحكم الشرع ليس مطلق الحرية ، ولا مطلق التصرف في أموال الناس ومنافعهم ، وانما هو في جميع ذلك مقيد بالاحكام الشرعية ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . فالحكومة المطلقة التي درجت عليها الدول والامارات الاسلامية وتوارثتها من عهد معاوية لا وجود لها على التحقيق في الدين الاسلامي .

عزل مدحت باشا ونفيه وصدارة ادهم باشا

فعزل مدحت باشا ونفي على الباخرة (عز الدين) الى ايطاليا ، ووجهت الصدارة العظمى الى أدهم باشا والد محمود بك وخليل بك مديري دار العاديات (الموزه خانه) ، وعين جودت باشا للداخلية ، واحمد وفيق افندي لرياسة مجلس المبعوثان موقتا ، لان انتخاب الرئيس مبين في المادة السابعة والسبعين من القانون الاساسي .

بعد خروج السفراء ومندوبي الدول من الاستانة العلية بعث البرنس غورجقوف ناظر خارجية روسيا الى الدول بمنشور مؤرخ في ٣١ كانون الثاني (يناير) يطلب فيه مداخلتهم بالاشتراك لاجراء الاصلاح في الممالك العثمانية (!) ، والا اضطر القيصر وحده الى اتخاذ التدابير اللازمة في هذه المسألة وأرسل الجنرال اغناتيف الى اوربا يقول : « ان الباب العالي بدأ يخل بمعاهدة باريس ، فتمام استقلال تركيا المشروط في تلك المعاهدة اصبح واهيا لاغيا » فترددت دول اوربا ولا سيما انكلترة في قبول هذا الكلام

انتخاب اعضاء مجلس المبعوثان

رأت الدولة العلية اصرار اوربا على اصلاح الروم ايلي فسارعت الى انتخاب المبعوثين وتطبيق احكام القانون الاساسي الذي نالت به الامة العثمانية الحرية وحق الحكم ، فلم يفقه الناس اذ ذاك معنى هذه الحرية ولا قدروها حق قدرها ، فظنوا أن المبعوثين كبقية الموظفين يشتغلون بمصالح الامة تحت سيطرة الوزراء والنظار ليستفيدوا من الرواتب التي يتقاضونها ، فلم يهتموا بأمر الانتخاب كما يجب . حدثني بعض احرار الاستانة قال كنا نحرض الناس على الانتخاب ونسوقهم اليه سوقا ، وهم يقولون : ألم يكفنا ما لدينا من المجالس والدوائر المشحونة بالموظفين حتى نزيد عليها مجلسا جديدا

وتتكبد القيام برواتب موظفيه ؟ فان لم يصلح حالنا وتنتظم ادارتنا بجميع مانراه امام أعيننا من النظارات والدوائر العظيمة المشتملة على الالوف من الموظفين اتراه يصلح بمجلس المبعوثان ؟؟

هذا ما كان يقال في قاعدة السلطنة ومقر الخلافة ؟ فما بالك في مراكز الولايات والالوية ، اذ كان المنتخبون لا يوصون مبعوثيهم الا بطلب الرتب والاوسمة والالقاب والمناصب والمخصصات والرواتب لهم ولاقاربهم وذويهم ! ! ولمن لاذبهم وحام حول حماهم ، أو بإعفائهم من التكاليف الاميرية والخدمة العسكرية وتخفيف الضرائب والمكوس عنهم ونحو ذلك ! ، مما يعود على الوطن بالخراب لا بالعمران ، كأن خزينة الدولة كنز لا يفني ، تمطر عليه الاموال من رحمة الله بغير عد ولا حساب

افتتاح مجلس المبعوثان وخطاب السلطان

افتتح المجلس العمومي المؤلف من الاعيان والمبعوثان في ٤ ربيع الاول سنة ١٢٩٤ و١٩ مارت (مارس) سنة ١٨٧٧ في بهو الاستقبال الكبير في سراي طولمه باغجه بمحلة بشكطاش ، وتلي النطق السلطاني امام الحضرة السلطانية وهو :

« أيها الاعيان والمبعوثان

« انني أبدي الامتنان بافتتاح المجلس العمومي الذي اجتمع للمرة الاولى في دولتنا العلية ، وجميعكم تعلمون ان ترقي عظمة واقتدار الدول والملل انما هو قائم بالعدل ، حتى ان ما انتشر في العالم من قوة دولتنا العلية وقدرتها في أوائل ظهورها كان من مراعاة العدل في سير الحكومة ، ومراعاة حق ومنفعة كل صنف من صنوف الرعية . وقد عرف العالم أجمع تلك المساعدات التي قام بها أحد اجدادنا العظام المرحوم السلطان محمد خان الفاتح في مطلب حرية الدين والمذهب ، وجميع اسلافنا العظام ايضا قد سلكوا على هذا الاثر ، فلم يقع في هذا المطلب خلل في وقت من الاوقات ، ولا ينكر ان المحافظة على السنة صنوف رعيتنا وملتهم ومذاهبهم منذ ست مئة عام كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة . والحاصل بينما كانت ثروة الدولة والملة (الامة) وسعادتها صاعدتين في مدارج الترقي في تلك الاعصار والازمان بفضل حماية العدالة ووقاية القوانين — أخذنا بالانحطاط تدريجا بسبب قلة الانقياد للشرع الشريف

والقوانين الموضوعة" وتبدلت تلك القوة بالضعف ...... » الخ

ثم ذكر إزالة السلطان محمود غائلة الانكشارية" وسبقه لفتح باب إدخال مدنية أوربا الحاضرة الى الممالك العثمانية ، واقتفاء السلطان عبد المجيد خان أثره " واعلانه أساس التنظيمات الخيرية ... الخ النطق السلطاني المعروف

قابل الجميع هذا النطق بالخضوع والركوع (!!!) وخصص لاجتماع المبعوثين بهو كبير في سراي العدلية بالقرب من اياصوفيا تحت رياسة أحمد وفيق افندي الذي صار بعد ذلك باشا ، وعين للرياسة بإرادة سنية لا بالانتخاب! ولذا كان رقيبا على مدحت باشا ، وقد اتهمه حزب تركيا الفتاة بالاستبداد لأن رياسة مجلس المبعوثان شبيهة بوظيفة رئيس الموسيقى المركبة من آلات كثيرة مختلفة ، لكل آلة توقيع خاص ، فعلى الرئيس أن يلاحظ موازنة الانغام وائتلاف بعضها ببعض" لتخرج جميعها بصورة مفيدة مطربة " وليس له ان يأخذ آلة من الآلات الموسيقية ويضرب عليها ليوازن ما بينها

مذاكرات مجلس المبعوثان

كانت الجلسة الاولى مخصصة للمذاكرة في العريضة التي ينبغي تقديمها من مجلس المبعوثان جوابا عن النطق السلطاني " فحررت مسودة الجواب واسقط الكاتب منه كلمة « السنة » في الجواب عن فقرة « المحافظة منذ ستمئة عام على السنة ... » المذكورة في النطق السلطاني " فقام أحد مبعوثي الروم من الاستانة وقال ما محصله : « لا يمكننا ان نقبل إسقاط كلمة تدل على أثمن امتياز نلناه " لان لساننا — نحن معشر الروم — هو ثروتنا ، فمن سوء الفهم وقلة الادب محو جلالة سلطاننا الاعظم ان نمحو كلمة أثبتها جلالته بنفسها وكررت منحنا ذلك من جديد » فقال الرئيس : ليس بحثنا في ذلك لانا لا نعرف في هذا المجلس لسانا غير اللسان العثماني الرسمي . فقال جمهور العثمانيين : « بك أعلى ! بك أعلى ! ! » أي حسن كثيرا حسن كثيرا ، فقام مبعوث أرمني وايد كلام المبعوث الرومي ، فقال الرئيس ثانية : ليس بحثنا في ذلك ، ومع هذا فاني أسأل اعضاء المجلس عما اذا كانت آراؤهم موافقة لرأيي ؟ فقال جمهور المبعوثين : « أوت أفندم ! اوت افندم ! » أي نعم ياسيدي ! نعم ياسيدي !

(لها بقية)